الفصل الأول

تحديد المفاهيم .. أولاً

- التطور والتقدمية
- الرجعية والجمود
- الروحية والمادية
- الحرية والكبت
- الخرافة والتقاليد
- ضد الدين

obeikandl.com

obeikandl.com

تحـــديد المفـــاهيم .. أولا ..

لم يكن اختـــلاف الناس فى الراى ، واختلافهم فى تطبيقه الا **وليـــد الاختلاف فى تحديد مفاهيم الأشـــياء ، ومدلول الكلمات ، والمصـــطلحات ،** ولم يكن قيام المذاهب الفلسفية او الدينية او السياسية ، ولم تكن التبعية لها والجمود فى تلك التبعية الا نتيجة الاختلاف فى الراى وفى تطبيقه .

والمجتمع الانسانى ، اى مجتمع ، من حق افراده أن يختلفوا فيما تدل عليه الكلمة التى صارت مصطلحا ، واصبحت عنوانا لتوجيه خاص . ومن حق هؤلاء الأفراد أن ينزعوا الى الاختلاف فى الفهم ، وفى تطبيق ما يفهم لأنه حق طبيعى للانسان كمفكر تأثر بوراثة خاصة ، وعاش فى بيئة معينة ، وحاكى فى توجيهه نموذجا ، حدد معالمه طابع المعرفة التى تلقاها فى مدرسته ، ونوع التجارب التى مر بها مجتمعه .

ولكن ليس من حـــق هؤلاء الأفراد أن يكونوا موجهين ولا قـــادة فى الراى ، لأن من يصل الى درجة القيادة فى توجيه المجتمع ، يصل الى قيادته عن طريق التفكير الفلسفى ، او عن طريق الكتاب والمقال ، أو عن طريق الفن الحاكى والمعبر — يجب الا يقف فى فهم المصـــطلحات ، التى صارت عناوين لتوجيهات خاصة ، عند حـــد الانسان العادى ، ويضيف الى الفهم لونا خاصا ليستوحيه من رغباته وعواطفه الشخصية . يجب أن يقف به فى دائرة الفكر الموضوعى منفصلا عن الميول الشخصية بقدر الامكان .

ان من يصل من المفكرين الى درجة القيادة والتوجيه فى المجتمع يجب ان يكون **ذا مستوى تفكيرى فوق رغباته وعواطفه الشخصية ، وأن يستلهم فى تحديد المفاهيم الحقائق التاريخية وحدها التى لهذه المفاهيم** . وبذلك يكون تحديده هذه المفاهيم تحديدا مجردا عن الرغبات والعواطف ، تحديدا مستندا الى « الموضوعية » دون « الشخصية » بقدر الامكان .

ان المفاهيم والكلمات التى اصبحت مصطلحات وعناوين على توجيهات خاصة ــ لها تاريخ ، ولها أصول انبثقت عنها . فاذا روعى تاريخها وروعيت أصولها عند التحديد كان تحديدها غير متداخل مع العواطف والرغبات الشخصية ، وبذلك يكون التوجيه القائم عليها أكثر سلامة وأبعد عن الهوى ، مما لو تحكمت فيها ميول الشخص المفكر ورغباته الخاصة .

ونحن نعلم من تاريخ الماضى : كيف أن بعض الكلمات والمصطلحات التى تحول مفهومها بفعل الرغبات الشخصية عن مدلولها الطبيعى التاريخى لعبت فى مجتمعنا الاسلامى سواء فى التوجيه أو السياسة دورا خطيرا . أقل نتائجه كانت الخصومة والتشفى فيها ، وكانت الفرقة وكان سوء الظن بين الأفراد . **كلمة الكفر** عرفها الاسلام وعرف مدلولها المسلمون الأولون واتخذوا من الكافرين موقفا حازما صريحا ، أملته عليهم هذه الآية الكريمة : **« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله »** (١) . وكان مفهوم الكفر بعد نزول هذه الآية ليس انكار ما عرف من الدين بالضرورة فحسب ، بل أخذ فيه الاعتقاد بالشرك ومعنى التحدى . والرغبة فى الاعتداء على المسلمين ، وتبييت سوء القصد بهم والانتقام منهم ، والاصرار فى تحديهم وتحدى ما يؤمنون به ، بحيث لم يعد هناك أمل فى مراجعة هذا الاصرار والانصراف عنه . ولذا طلب القرآن الكريم فى هذه الآية استئصال هذه الفئة الباقية من المشركين الكافرين الذين مارسوا العداوة والبغضاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم ــ طلب استئصال بقيتهم حتى لا تكون هناك فى المجتمع الاسلامى الناشىء بذور الفتنة وحتى يخلص الدين بعد ذلك لله . وهنا يستقر الأمن الداخلى فيه وتصان وحدته من عناصر الشر .

ولكن بعد ما انقسم المجتمع الاسلامى على نفسه انقساما مذهبيا وشعوبيا وسياسيا **أعطى للكفر مفهوم جديد ، هو أقرب لمعنى « المعارضة »** وأصبح من اليسير أن يوصف الاختلاف فى الرأى بالكفر ، ويوصف المعارض بالكافر وقد حكم الخوارج على عثمان بالكفر ، ووصف المتشيعون له معارضيه

---

(١) البقرة ١٩٣ .

بأنهم كافرون . وهكذا من بعد عثمان كثر استعمال الكفر للمعارضة السياسية لحكومة خليفة ما . حتى اذا هان امر الخلافة وضعف شأنها ، استخدم المختلفون فى الراى والمذهب كلمة « الكفر » للمخالف فى الراى او المخالف فى المذهب ، ثم شاع استخدامها للمنكر لبعض العادات والتقاليد . وقد رمى ابن تيمية بالكفر من اتباع الاتجاهات الفكرية الاسلامية فى وقته ، لانه انكر عليهم التقليد للمذاهب ، والتعصب الحاد لراى صاحب المذهب او للمؤلف فيه ، او للكتاب القائم عليه ، وطلب اليهم الرجوع الى القرآن والسنة الصحيحة ، وأن يستوحوا منهما أحكام الله كما استوحاهما المتقدمون .

(وعلى سبيل المثال سنذكر هنا **بعض كلمات متداولة فى توجيهها المعاصر فى تفكير المفكرين وكتابة الكتاب وتصوير الفنانين ، ونبين : كيف ان الوقوف بها عند أصولها وتاريخها يبعد كثيرا من الأذى والسوء فى التوجيه،** وبالتالى كيف أن ادخال « الشخصية » وما لها من عواطف ورغبات فى تحديد مناهجها يثير القلق والاضطراب فى التوجيه ، ويدفع الى الحزبية والخصومة بين الموجهين والموجهين (١) على السواء ، كما يدفع الى التنابذ بالالقاب وتتبع السيئات الشخصية فيما يكتب ويقال ، وبذلك يصبح المجتمع مجتمع طوائف وخصومات .

* * *

● **التطور والتقدمية :**

فاذا استعرضنا مثلا كلمة **التطور او التقدمية** فى ظل مدلولها اللغوى وتاريخ مفهومها الذى أراده انسان المفكر الموجه — وجدنا انه يقصد بالتطور الاستمرار فى الحركة فى خط سير النمو الطبيعى للانسان الفرد ، ولمجتمعه الذى يعيش فيه . وخط سير النمو الطبيعى للانسان الفرد هو الخط الموصل الى تكامل استعداداته الفطرية ككائن يتحرك ويفكر . وتكامله فى حركته ، أن يكون مستقيما فيها غير معوج . وتكامله فى تفكيره أن يكون حكمه على الأشياء وتقديره للأمور صوابا ، يقل فيه الخطأ . فاذا ما استقام فى حركة كان الانسان المهذب الذى لا يصطدم مع نفسه ولا مع غيره .

---

(١) الموجهين والموجهين : الأولى بكسر الجيم والثانية بفتحها .

واذا كان تقديره للأمور صائبا بقدر الامكان قل اضطرابه وقلقه النفسى بسبب الخداع فى الحكم والتقدير ، وعندئذ يكون واقعيا ، لا متخيلا ولا مضيفا للواقع صورة غير الصورة التى هو عليها . والانسان الفرد المتطور أو التقدمى هو الانسان المهذب فى سلوكه والواقعى فى حكمه والصادق فى التعبير عنه .

والسلوك المهذب للانسان هو سلوك الانسان على حقيقته والانسان على الحقيقة هو الكائن المفكر صاحب الارادة والتصميم ، أو صاحب الايمان . السلوك المهذب هو السلوك طبقا لخصيصة الانسان ، وطبقا لما يتميز به عن الحيوان . ومن هنا كانت الاستقامة فى سلوك الانسان فى حركته هى أمارة تطوره ، وتقدمه ، أو أمارة ميزته عن الحيوان . والاستقامة فى السلوك لكى تتحقق تتطلب ارادة وتصميما ، أو تتطلب ايمانا . تتطلب ارادة وتصميما على أن خط السير فى الحركة يجب أن يكون على نحو كذا وفى هذا الاتجاه ، دون أن يكون على نحو آخر ، وتتطلب ايمانا بالنحو الذى يجب أن يكون عليه خط السير فى الحركة . ومن هنا كانت الارادة وكان الايمان ميزة الانسان وخاصيته دون الحيوان .

والتفكير الواقعى — الذى هو امارة التقدم والتطور فى خصيصة الانسان ايضا — هو التفكير الذى قل فيه عنصر الخداع او قل فيه الخطأ . والانسان يخدع فى تفكيره او يخطىء فيه اذا انحرف فى خط سير حركته ، اى اذا لم يستقم فى حركته ككائن متحرك له ميزة الارادة والايمان ، فعند الانحراف فى الحركة يتجه تفكير الانسان الى تبرير الانحراف ، لا الى تضييق دائرة الخداع أو الخطأ فى الحكم والتقرير . واذا اتجه التفكير الى تبرير الانحراف فى السير لم يحتج الى الارادة ولا الى الايمان . واقترب عندئذ فى أوجه الشبه مع الكائن المتحرك الآخر ، الذى لم يوهب مع طبيعته استعداد الارادة والايمان ، ولم يطلب منه بالتالى بحكم طبيعته أن يكون ذا استقامة فى حركته .

الانسان المتطور المتقدم اذن هو ما عناه الله بقوله تعالى : « **واتقوا الله ، ويعلمكم الله** » (١) . فتقوى الله هى الاستقامة فى السلوك والحركة ،

---

(١) البقرة : ٢٨٢ .

والعلم الذى يرشد اليه الله هو العلم القائم على صدق التقدير والحكم ، والذى انتفى فيه الخداع والخطأ .

وهنا يمكن ان يقال : **التطور والتقدمية فى دائرة الانسان هى الاستقامة التى تتوقف على الارادة والايمان ، وهى الفكر الصحيح الذى سلم من الخداع والخطأ** . وكلما سار الانسان فى طريق الاستقامة فى السلوك ، أو فى طريق الفكر الصحيح فى التفكير — كلما سار فى طريق التقدم والتطور . وكلما كان الانسان فى ارادة وايمان كلما كان ذا تقدمية وتطور كذلك .

هذا فى حق الانسان الفرد . **أما المجتمع المتطور المتقدم فهو المجتمع** الذى يقل فيه الاحتكاك والتصادم بين أفراده وجماعاته ، هو المجتمع الذى استقام فيه سلوك أفراده ، وصح تفكيرهم وصدق تعبيرهم ، أو هو الذى ابتعد فيه الانحراف فى خط السير ، كما ابتعد الخداع والخطأ فى التقدير والحكم. اذ المجتمع الانسانى هو تحقيق عملى للاستعداد الفطرى فى الأفراد ، وان كان مساويا لوجودهم كطاقة واستعداد بشرى . المجتمع المتقدم المتطور فى التوجيه هو ما قلت فيه الجرائم بأنواعها ، وقلت فيه هيئة الحراسة والأمن ، وقلت فيه دور القضاء ، هو المجتمع الخلقى المهذب او هو المجتمع الانسانى الذى ساد فيه الاقرار بالواجب ، وسادت فيه الارادة والايمان ، وساد فيه الصدق والتعبير عن الحق .

***

- **الرجعية والجمود :**

وعلى العكس من مفهوم التطور والتقدم **مفهوم الرجعية ومفهوم الجمود : الرجعية هى الميل فى السير الى الوراء والعزوف عن متابعة الانسان فى الحركة نحو النقطة التى يتجمع عندها تكامل استعدادات الانسان الطبيعية ، والجمود هو الوقوف فى الحركة عند مرحلة من مراحل تطور الانسان نحو كماله وتمام نمو طاقاته البشرية** ، وقد عرفنا من قبل أن أمارات تقدم الانسان وتطوره فى السلوك استقامته فيه ، عن طريق الارادة والايمان . كما عرفنا أن أمارات هذا التقدم عنده فى التفكير هى اضمحلال كمية الخيال وكمية الخداع والخطأ فى أحكامه وتقديره . واذن الانسان الرجعى هو الانسان

المنتكس ، والانسان الجامد هو الواقف وكلاهما غير المستقيم فى سلوكه ، أو ضعيف الارادة والايمان ، بحيث لا يستطيع أن يحكم أمر سير نفسه فى خط الحركة المرسوم لنمو الانسان وكماله . وكلاهما غير المفكر تفكيرا دقيقا ، أو هو الذى شاب تفكيره الكثير من الخداع والخيال . وهنا الانسان صاحب الاعتقاد فى الخرافة انسان رجعى متخلف أو جامد . والانسان غير المهذب فى السلوك أو الذى بقى فى دائرة الطفولة البشرية انسان كذلك رجعى متخلف أو جامد .

الانسان الذى يسلك سلوكا قريبا من الحيوانية ولا يشعر بسلوكه انه يحقق ميزة الانسان ، والذى له منطق الطفل ، هو انسان رجعى متخلف أو جامد : الانسان الحيوان ، أو الانسان الطفل هو الرجعى والمتخلف أو هو الانسان الجامد ، الذى انقطع عن السير وفق خطه المرسوم من الطبيعة البشرية الصائرة المتطورة .

ونخلص من ذلك الآن الى **ان مفهوم التطور والتقدم هو السعى نحو التهذيب ونحو دقة التفكير فى تقدير الأشياء ، ومفهوم الرجعية والجمود هو عدم الأخذ بسنة التهذيب وطريق الدقة فى التفكير وتقييم الأمور .**

***

فاذا جاء الآن بعض المفكرين أو الكتاب أو الفنانين المعبرين بفنهم . وصور التطور والتقدم فى الانسانية على انه الاستجابة لنزعات النفس فى السلوك كنفس لها **الحركة فى أى اتجاه ، دون رعاية لاستقامتها فى هذه الحركة ، وبالتالى دون حاجة الى ارادة وايمان يضمن هذه الاستقامة** — فانه لا يصور التطور والتقدم فى واقع أمره ، وبالأحرى هو بهذا التصوير يحدد الرجعية والتخلف ، أو يحدد الجمود وبقاء النفس فى مرحلة من مراحل النمو لا يتجاوز الى ما بعدها ، ولكن باسم التطور . والذى يدعو الى التطور والتقدم بهذا المعنى يدعو الى العودة الى أولى مراحل النمو الانسانى ، اى انه يدعو الى الرجعية أو يدعو الى الوقوف والجمود .

واذا جاء بعض المفكرين أو الكتاب أو الفنانين المعبرين بفنهم ، وجوز

التقدم فى الفكر على **أنه اهدار الأحكام السابقة وتقديرات الأشياء التى قدرها وحكم بها الانسان فى عصر مضى ، ثم الى استئناف احكام وتقديرات أخرى** — فهو يدعو الانسان الى عدم الاستمرار فى سير التفكير ، ويطلب منه أن يبتدىء حين يجب أن يتابع السير . ولو أنه التزم فى معنى التقدم الفكرى — كما أشير اليه من قبل — انه الفكر الذى يسعى الى الدقة فى الحكم والتقدير ، ويسعى الى طرح الخيال والخداع فيه ، لرأى أن اهدار الأحكام السابقة فى تفكير الانسان كلية لا يساعد على النخل والتمييز ولا على الوقوف على ما هو دقيق من جانب ، وعلى ما هو خيال وخداع من جانب آخر فى تقديرات الأشياء والحكم عليها . ان رعاية ماضى الفكر الانسانى ضرورة لتحديد خطوات التفكير الأخرى بعده ، كالطفولة الانسانية فى ضرورتها لتحديد مرحلة المراهقة بعدها ، ثم مرحلة الرشد الأخيرة ، ولحيوانية الحيوان فى ضرورتها لتمييز الانسان جملة عنها .

خطان متقابلان : خط الى الأمام ، وخط الى الوراء ، والانسان يبتدىء فى تطوره من نقطة الطفولة الانسانية التى تشبه حيوانية الحيوان ، وينتهى فى هذا التطور الى نقطة الرشد الانسانى ، وهو مستوى الانسانية المهذب فى السلوك الدقيق فى الحكم والتفكير ، مما يدفعه الى الرشد الانسانى ، فهو من عوامل التقدم ، وما يشده الى الطفولة الانسانية فهو من عوامل الرجعية ، وما يقف به عن الحركة نحو الأمام أو الى الوراء فهو عامل الجمود .

واذن ليس من مفهوم التقدمية أو التطور شد الانسان الى الحيوانية والتصرف الحيوانى . وليس من مفهوم الرجعية مساعدة الانسان على الرشد الانسانى ، بالسلوك المهذب والتفكير الدقيق .

***

• الروحية والمادية :

وهنا ينتقل بنا الحديث الى **مفهوم الروحية ومفهوم المادية** . فقد شاع منذ القرن الماضى أن مفهوم الروحية يتصل بمفهوم التخلف والرجعية ،

ومفهوم المادية أو الواقعية ينطوى تحت التقدم والتطور . اى أن الروحية صورة من صور الرجعية ، أو عامل لا يساعد على السير بالانسان الى الأمام . وأمام الانسان هو السير الى نهاية تطوره ، وهو الرشد الانسانى . ووراء الانسان وخلفه مرحلة الطفولة الانسانية التى ابتدأ منها السير فى حركته . فهل الروحية صورة من صور الرجعية أو عامل دافع الى الانتكاس نحو الوراء ؟ وهل المادية صورة من صور التقدم أو عامل من عوامل الدفع نحو الأمام أو نحو الرشد الانسانى ؟

وقبل شيوع الفكر المادى وسيطرة المادية على التوجيه فى القرن التاسع عشر سبقتها الروحية وسيطرت قرونا على التوجيه . فهل اعتبار الروحية عاملا من عوامل الرجعية ، واعتبار المادية عاملا من عوامل التقدم صورة من مكافحة المادية اللاحقة والسابقة ، أم أن مفهوم الروحية ومفهوم المادية يوحى بما أشيع الآن ونسب الى كل منهما .

الروحية فى أصل وضعها نسبة الى الروح ، وهى الموجود الذى يدرك بالتصور ولا يدرك على سبيل الاستقلال بالحواس . **والمادية فى أصل وضعها أيضا نسبة الى المادة** ، وهى الموجود الذى يدرك باحدى الحواس .

ثم تطور مفهوم الروحية فشمل **المثل ، والقيم ، والمبادىء** . لأن من شأنها أن لا تدرك بالحواس ، فالعدل ، والرحمة ، والتعاون ، والخير ، والبر وأمثالها ، مثل وقيم ومبادىء ، وهى بالتالى تدرج تحت مفهوم الروحية ، لأنها لا تدرك بالحواس ، والدين نفسه روحى لأنه جملة من المثل والقيم والمبادىء ، ولأن مصدره وهو الوحى الالهى لا يدرك بالحواس .

وتطور أيضا مفهوم المادية وأصبح يتناول ما خضع لتجربة الانسان وملاحظته ، وعندئذ ادعت المادية أنها صنو الواقعية نسبة الى الواقع الذى لا ينكر ولا يكذب .

وبهذا التطور لمفهومى الروحية والمادية اتسع التقابل بينهما ، واتسعت الفجوة فى التوجيه القائم عليها . فالروحية — المثالية أو الدين — تدعو الى المثل والمبادىء أى تدعو الانسان الى أن يوجه سعيه فى الحياة نحو المثل

والمبادىء . والمثل والمبادىء هى المعانى الانسانية التامة التى تتجاوز الاشخاص كاشخاص .. واذا عرفنا ان اخص مظاهر الطفولة فى الانسان هو الارتباط بالشخص ـــ وبالذات فى السعى والادراك ، وان اخص مظاهر الرشد الانسانى هو السمو فى السعى والادراك عن محيط الشخص والذات ـــ عرف ان الدعوة الى المثل والمبادىء دعوة الى الرشد الانسانى .

ان صاحب **الطفولة الانسانية** لا يدرك للغير مكانا معه فى الوجود ، ولا يتصور له حرمة ، ولا يعنى انه له حق فى الحياة والعيش ، ولذا لا يدرك قيما ولا مبادىء لا يدرك ان هناك عدلا معناه التوازن بينه وبين غيره فى الحياة ، ولا يدرك ان هناك خيرا معناه المنح للغير بلا مقابل ، المنح من الصحة والجاه والمال والمعرفة للغير دون ان يكون هناك مقابل لما يمنح ، ولا يدرك ان هناك مجتمعا يضمه وغيره ، ويطلب منه كما يطلب من غيره ويرعاه كما يرعى غيره ..

وصاحب **الرشد الانسانى** هو الذى ادرك القيم والمثل والمبادىء ، وهو الذى يسعى اليها . هو الذى ادرك قيم الحياة ، ادرك قيمة التضحية « وقيمة البذل » وقيمة « المعاونة » وقيمة « الخير » هو الذى ادرك « الاعلى » فوق ذلك وهو « الله » . ان القيم والمثل والمبادى . تتمثل فى « التنازل » او فى « المنح والاعطاء » فالمضحى متنازل ومانح ، والباذل متنازل ومانح ، والمعاون متنازل ومانح والخير متنازل ومانح .. والله خالق فهو أعظم معط ومانح .

واما المادية او الواقعية فهى تدعو الى الايمان بالشخص والمحس ، تدعو الى الاستمتاع بالوجود الشخصى ، وبما هو محس ، تدعو الى انكار القيم والمثل والمبادىء ، تدعو الى عدم التنازل وعدم المنح والاعطاء بلا مقابل ، ولذا تنكر الخالق . لأنها لا تتصور الا محسوسا يتبادل النع ، والله « **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** » (١) ، وهو الرحمن الرحيم .

بهذا تحرص المادية على أن لا يلازم الانسان طفولته الانسانية ، تحثه

---

(١) الأنعام ١٠٣ ..

على الاستمتاع بالصبغة المادية دون حرج من شعور بمثل أو مبادىء وقيم ، ودون خوف من خالق له الأولى والآخرة .

وهنا نجد دعوة الروحية ليست دعوة الى الانتكاس ، وليست دفعا بالانسان الى الوراء ، وهو مرحلة الطفولة الانسانية ، بل هى دفع الى الأمام ، الى رشد الانسان وكماله وتمام تطوره ، كما نجد دعوة المادية ليست دعوة الى التقدم والتطور ، بل على العكس هى دعوة الى الطفولة الانسانية ، دعوة الى الحيوانية فى الانسان ، ودعوة الى اهمال النسمة التى تميزه عن الحيوان ، وهى مستوى الانسانية . اذ مستوى الانسانية قيمة من القيم لا يحس ، وهى لا تؤمن بقيمة ما .

واذن ما توصف به الروحية من أنها رجعية ، وما توصف به المادية من أنها تقدمية أغفل تاريخ كل من الروحية والمادية ، وحدد مفهوم كليهما من رغبات خاصة ، تبعد هذا التحديد عن أن يستخدم فى توجيه صحيح لمجتمع يريد أن ينهض أو يستمر فى النهوض والتقدم .

***

● **الحرية والكبت :**

وكذا ما يتصل بالمفاهيم التى يجب أن تحدد اولا : مفهوما « **الحرية والكبت** » . فقد برزت منذ أعقاب الحرب العالمية الأخيرة دعوة قوية الى الحرية ودعاية سيئة ضد « الكبت » . وصاحب فى الشرق دعوة الحرية الدعوة الى تحرير المرأة . وجعلت الحرية مظهرا من مظاهر التقدم والتطور ، كما جعل الكبت من مظاهر الرجعية والتخلف . ونسب الى المادية أنها تدعو الى الحرية ، كما نسب الى الروحية أنها بجانب الكبت . فما معنى الحرية ومفهومها . وما معنى الكبت ومفهومه ؟

الحرية هى الانطلاق فى حدود طاقة الانسان . الانطلاق فى الراى ، والاعتقاد فى القول ، وفى الفعل ، وفى الاتصال بالغير . والكبت هو الحد من هذا الانطلاق ، حد فى الراى والاعتقاد ، والقول ، والفعل ، والاتصال بالغير .

نفهم ان المادية تدعو الى حرية ، ونفهم ايضا ان الروحية تدعو الى الحد وعدم الانطلاق ، ولكن لا نفهم أن الحرية بهذا المعنى مظهر من مظاهر التقدم ، الذى هو رقى الانسان نحو مستوى الرشد الانسانى .

نفهم أن المادية تدعو الى الانطلاق ، لأنها تنكر القيم والمثل والمبادىء ، وتؤمن بالفردية والأنانية التى هى أخص مظاهر الطفولة الانسانية ، ونفهم أن الروحية تدعو الى الحد وعدم الانطلاق ، لأنها تدفع الانسان نحو المستوى الانسانى الرفيع وهو مستوى الرشد . وفى هذا المستوى يقر الرشيد بوجود غيره ، ويؤمن بالقيم والمبادىء التى تجعل منه ومن غيره وحدة فى الترابط والانسجام ، والاقرار بالغير مع الايمان بوجوب الانسجام معه يجعل حرية الفرد فى حدود مصلحة الغير . فللفرد أن يرى ، ويعتقد ويقول ، ويفعل ، ويتصل بالغير ، ولكن لا على الاطلاق ، بل بما يصون حرمة الغير ويحفظ وجوده .

والشىء الذى لا نفهمه بعد ذلك أن تكون الحرية بمعنى الانطلاق مظهرا التقدم والتطور . اى تقدم واى تطور ؟ تقدم الانسان وتطوره بالمعنى التاريخى لمفهومه يأبى هذا الانطلاق ، أما التقدم بمعنى العودة الى حيوانية الانسان وحدها والى عهد الطفولة الانسانية — كما يريده البعض — فمن لوازمه هذا الانطلاق . والتعبير الصحيح عنه ساعتئذ هو الفوضى أو الحيوانية وليست الحرية ، كما أن التعبير الصحيح عن الحد من الانطلاق الذى تدعو اليه الروحية هو التنظيم وليس الكبت .

ليس هناك مجتمع انسانى بالمعنى المفهوم من كلمة مجتمع الا ومن لوازمه التقيد والتحديد ، اذ طبيعة اى مجتمع هى فى تنظيم علاقات أفراده بعضهم ببعض ، هى علاقات تتمثل فى اداء واجبات واعطاء حقوق . والمفهوم الواقعى للمجتمع الانسانى هو تنظيم « الاعطاء للغير » . وطالما هناك اعطاء الى الغير فهناك قيود تحد من انطلاق الفرد ، وهى القيود التى تجعله يحد من أنانيته ليعطى غيره . اذ لو ترك للأنانية سبيلها لما رأى الفرد غيره ، فضلا عن أن يقف قبله فيمد اليه يده وساعده .

أما تحرير المرأة — الذى اقترنت الدعوة اليه بالدعوة القوية الى الحرية ، عقب الحرب العالمية الأولى — كمظهر من مظاهر التقدم ، فيصح أن يعد من

هذه المظاهر لو قصد فى مفهومه الى تخليص خط سير الانسان نحو المستوى الرفيع من العقبات التى تقف بالمرأة عن السير فيه كالاعتقاد بالخرافات والتمسك بالتقاليد المظلمة . وبذلك تسير مهذبة فى سلوكها ودقيقة فى أحكامها وتقييمها للأشياء ، ولكن لو قصد به معنى الانطلاق الذى هو للطفولة الانسانية فمفهومه عندئذ العودة بالمرأة الى الوراء . واذن الدعوة الى تحرير المرأة دعوة بها الى الرجعية والتخلف ، قصد بها أن تكون موضوعا ميسرا للاستمتاع كأى موضوع آخر من موضوعات الطبيعة المشاهدة .

***

● **الخرافة والتقاليد :**

وكذا الخرافة والتقاليد من المفاهيم التى يجب أن تحدد أولا ، والا اسىء استخدامها فى التوجيه . ان **مفهوم الخـــرافة** بحسب تاريخها يرجع الى الاعتقاد فيما لا ينفع ولا يضر ، ولا يفهم من منطق بشرى سليم . وهذا المفهوم من غير شك مظهر للرجعية ، وضد التقدمية والتطور ، ولكن اذا قصدنا بالخرافة المعانى الروحية أو مبادىء الدين وتعاليمه ، فقد رأينا أن الدعوة الى المبادىء والقيم باسم الروحية أو باسم الدين أو باسم الانسانية هى دعوة الى الرشد الانسانى ودعوة الى المســـتوى الرفيع من مستويات الانسانية .

أما التقاليد ، وهى جملة العادات التى لمجتمع معين ، فقد تكون تأصلت فى هذا المجتمع وقامت فيه على أساس من القيم والمثل التى يسعى الى تحقيقها . وعندئذ لا يكون مفهومها معنى مناوئا للتقدمية . وقد تكون تسللت اليه من مجتمع آخر ودعاه الى قبولها انحطاط المستوى القائم وضعفه عن دفعها من جديد ، وعندئذ فهى كالخرافة فى مدلولها وآثارها .

***

● **ضـــد الدين :**

ان هذه المفاهيم التى استعرضناها حتى الآن ، فيما يدور فى تفكيرنا العام ، تنقسم الى مجموعتين متقابلتين . المجموعة الأولى تتناول ، التقدمية

ـ التطور ـ الواقعية ـ الحرية ـ تحرير المرأة . والمجموعة الثانية تتضمن : الروحية والدين ـ الرجعية والجمود ـ الخرافة والتقاليد ـ الكبت . فالحديث اذا ابتدا عن التقدمية مثلا ينساق الى التطور ، والى الواقعية ، والحرية ، وتحرير المرأة . فهى عبارات فى سلسلة واحدة من التفكير ، وتنبثق من أصل واحـد فى الاتجاه والتوجيه . وأى حديث عن مفهوم منها ينجر الى البقية فى سلسلتها .

وكذلك الحديث اذا اشتبك مع الروحية تراه لا يترك الدين ، والرجعية والجمود ، والخرافة والتقاليد ، والكبت دون ان يشـتبك معها كذلك . لأنه يراد بها تعبيرات مختلفة لفكر واحد . ويقصد بالاشتباك مع واحدة منها دفع هذه الفكرة من أساسها أو على الأقل يقصد الغض منها .

ثم اذا أضيف الى مفاهيم المجموعة الأولى ، وهى التقدمية .. بريق الشىء المحبب الى النفوس ، يضاف الى مفاهيم المجموعة الثانية لون الكراهية والبغض ، وهذه الاضافة ـ هنا وهناك ـ لا تحملها ذوات المفاهيم على انها شىء أصيل فيها . لأن المفاهيم ـ وهى تحديدات الفكر ـ ليس من شأنها أن تكون ذا طابع وجدانى خاص ، وليس من خصائصها أن تصور عاطفية معينة . وانما هـذه الاضافة أوحى بها ما يسـمى « بتداعى المعانى ». فاذا ما عرض فى الكتابة والنقد بشىء على أنه مرغوب فيه أو مرغوب عنه ، وتكرر ذلك مرارا ـ ارتبط فى النفس الانسانية بمـا يثير الرغبة فيه أو الرغبة عنه . واذا ذكر المفهوم بعد ذلك لانسـان ما ، تداعت فى نفسـه الرغبة فيه أو الرغبة عنه . اثر ذكره .

فأى شىء فى عصرنا الحديث حسن للنفس مفهوم التقدمية وما يلحقها من مفاهيم أخر ، وأى شىء بغض للنفس مفهوم الروحية وما يتحصل بها من مفاهيم محمولة عليها ؟ . ان ذلك اثر من آثار الدعوة الى قبول التقدمية ورفض الروحية من جانب آخر . وهى دعوة لم تسند الى القول وحده ، والى التبشير به فى جانب التقدمية ، والتنفير عن طريقه من الروحيـة . بل شاب القول ـ لأصـحاب دعوة التقدمية فى التوجيه ـ **تغيير عملى فى مجال الحضارة الصـناعية والفكر العلمى الآلى أو الميكانيكى** ، غير بدوره مستوى الحياة المادية لشعوب أصحاب هذه الدعوة . واختلط بذلك التقدير

على العقل العادى الذى لا يفصل بين القيم المختلفة . واصبح منطق هذا العقل العادى هو : ان رفع مستوى الحياة المادية كان نتيجة للانقلاب فى مجال الصناعة ، واثرا لنجاح الفكر العقلى الميكانيكى . فما يدعو اليه ارباب هذه الصناعة واصحاب هذا الفكر العلمى الميكانيكى من التقدمية فى التطور من جانب ، وطرح الروحية من جانب آخر ، مقبول ترتاح اليه النفس ، بل تندفع اليه وتنقاد له . ولم يقف هذا العقل العادى بعد على الضرورة اللازمة التى يجب توافرها بين قضايا هذا المنطق حتى يكون اقتناعه بتنميته اقتناعا قائما على الزام عقلى .

التقدمية التى يدعو اليها اصحاب الانقلاب الصناعى فى مجال الحضارة الصناعية ليست فى التقدمية والتطور فى الصناعة ولا فى الفكر العلمى الرياضى الميكانيكى ، وانما هى التقدمية فى سلوك الانسان وفى تصوره لمثل الحياة وقيمتها ، وقد رأيناهم يريدون بالتقدمية ما يراد واقعيا من مفهوم الرجعية ، وهو الارتداد الى الوراء فى مرحلة الطفولة الانسانية وهى المرحلة التى تغلب عليها الانانية والمادية الحسية ، والفعية المتبادلة وعدم الاقرار بالمثل فى العلاقات الانسانية .

:

فالانقلاب الصناعى مجاله الحضارة المادية الصناعية مجاله الصلب والحديد والقوة المادية المحركة ، والفكر العلمى الرياضى الميكانيكى مجاله الآلة واستخدامها والانتقال بها من طور الى طور ، على اساس من التجارب المادية والتحليل الكيميائى ، ورصد ذلك فى أرقام ورسوم بيانية ، وليس ضرورى أن يكون القائمون على هذه الحضارة الصناعية أو أن يكون علماء الكيمياء والتجربة والرياضة أنفسهم — فضلا عن شعوبهم التى تتبعهم — من أصحاب الاستقامة فى السلوك الانسانى ، ومن الذين تجاوزوا حد الانانية ، وأقروا بالقيم والمبادىء والمثل وهى الأسس اللازمة لمجتمع انسانى سليم متعاون بدفع ذاتى ، لا يرهبه القانون والخشية من السلطة القائمة .

فالتقدم الصناعى قائم حتما على التقدم العلمى الميكانيكى ، وكلاهما ليس بلازم أن يكون نتيجة للتقدم فى السلوك الانسانى وتصور القيم والمبادىء والمثل . قد يكون هناك انسانى بدائى يركب الناقة ويقتات من

ضرعها مباشرة ولا يعرف الآلة : كيف تدار ، وبم تركب — ومع ذلك هو انسان متقدم فى سلوكه وفى علاقاته بغيره فى مجتمعه .

قد كان « محمد بن عبد الله » أميا ، نشأ فى بداوة الصحراء ، ومع ذلك كان مثلا أعلا للانسان صاحب المستوى الانسانى الرفيع ، لا .. لانه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن لأنه أخذ نفسه منذ الصغر عن طريق الايمان والارادة بالترفع عن الدنايا والعطف والحنو على الغير ، حتى عرف بالايثارى . والايثار هو الضرب الرفيع فى الانسانية ، لأنه ينشأ عن هجر ما للأنانية من نزعات ، مؤثرا أن يستجيب لحاجة الغير دونها .

ولم يكن مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم مجتمعا ذا انقلاب صناعى ، ولم تكن لهم العقلية العلمية الرياضية الميكانيكية — ومع ذلك كان مجتمعهم نموذجا للمجتمع الانسانى المهذب للتعاون المتماسك . تقوده كلمة الله نحو التضحية وبذل المال والولد . والله جل جلاله ليس عملة يتبادل وإياها المنفعة المادية ، ولكنه الرب والمعبود الذى تطيب بلقياه النفس وتضرع اليه فى الأزمات والكروب .

ومن جانب آخر ، المجتمع الغربى الحديث مجتمع ذو انقلاب صناعى ، وتقدم فى الفكر العلمى الرياضى الميكانيكى ، ومع ذلك **هو مجتمع مفكك تغلب عليه الأنانية والفردية ، ويسوده القلق النفسى وعدم الاطمئنان** ، ليس له من هدف الا الغلبة والسيطرة على الشعوب والأفراد معا ، لا يعرف قيما ، ولا مثلا ، ولا مبادىء ولا يعرف ربا خالقا لهذا الكون — وان تحدث عنه — فى سبيل السيطرة والغلبة . اثار حربا عالمية مرتين فى نصف قرن . وسيثير الثالثة وربما لا تكون الأخيرة فى النصف الثانى من قرننا العشرين .

واذن تقدمية الصناعة شىء وتقدمية الأخلاق والمستوى الانسانى شىء آخر . تقدمية العلم الرياضى الميكانيكى ليست هى تقدمية البشرية فى التوجيه والاستقامة .

ولكن الخلط بين القيم لدى العقل العادى يدفعه الى قبول الدعوة التى ينشط لها أرباب الحضارة الصناعية المادية ، وهى الدعوة الى التقدمية

والتطور البشرى . وهى كما عرفنا أجدر بأن تكون رجعية وارتدادا . واذا قبلت من العقل العادى فتقبل على أنها شىء محبب الى النفس مرغوب فيه . واذا قبلت من النفس على هذا النحو فالروحية أو الدين — وقد وصف بالرجعية والجمود والخرافة — ليس لهما مكان فى النفس الا مكان المبغوض المكروه .

وهنا لكى يبعد البغض والكره عن بعض المفاهيم من جانب ، وينفصل القبول والاستحسان عن البعض من جانب آخر — يجب أن تحدد المفاهيم أولا التى تستخدم فى توجيه الانسان والمجتمع الانسانى .

ان مجتمعنا الشرق الاسلامى لم يصبح بعد مجتمعا ذا حضارة صناعية وذا تفكير عملى رياضى ميكانيكى ، فلو اضفنا الى ذلك توجيها تقدميا أى ارتدادا الى الطفولة الانسانية والى الجانب الحيوانى فيها لكان مجتمعا عديم القيمة فى كل جانب .

ان مجتمعنا الشرقى الاسلامى يريد أن ينهض ، فلابد أن يقوى فيه الوعى بالنهضة . ولا سبيل الى ذلك الا عن طريق الروحية الاسلامية الواعية ، وهى روحية التعاون والحد من الأنانية ، وروحية المثل والمبادىء العليا ، وهى مبادىء العدل والاحسان والخير ، وروحية الدفاع عن المجتمع ، وهى روحية الجهاد ورد الاعتداء وروحية السلم مع حفظ الكرامة الذاتية والاستقلال فى الأهداف وفى مقاييس الحياة ، وتلك رسالة الاسلام .

اننا ندعو الى التقدم فى الصناعة ، والتقدم فى العلم الرياضى الميكانيكى ، والتقدم فى العلم التجريبى ، ولكن لا ندعو الى الارتداد الى الحيوانية باسم التقدم والتطور . نريد تقدما فى المستوى البشرى ، وتقدما فى مستوى غذائه وكسائه . ولكن لا نريد أن نعقد المستوى البشرى المهذب فى سبيل ملء البطون وتدفئة البيوت . اننا لو وصلنا الى مستوى بشرى مهذب رفيع لأصبحنا أكمل حرية فى السعى لبناء مجتمع متوازن متعاون ، أكمل حرية من رق الفقر والجهل والمرض .

اننا نمقت الرجعية والخرافة والجمود ونحاربها ولكن لا نطلقها على الدين ولا نجعل بينها وبين الاسلام صلة لأن الاسلام دين المستوى الانسانى الكامل ، فى السلوك والتصوير .

لسنا باسلامنا رجعيين ، وانما نحن به تقدميون لو وعيناه كما وعاه اسلافنا واخذنا انفسنا به فى حياتنا العمليّة ، ولو كان للاسلام وتعاليمه فى حياتنا ما يجب أن يكون لكنا فى غنى عن الفلسفات المعاصرة وتنازعها وصراعها ، ولسلم مجتمعنا من الفجوات الواسعة والاضطرابات والبلبلة. لأنه بالاسلام يجد التساند والتمسك وفى الاسلام يجد الدواء والعلاج يقدمه الى كل مريض أو مأزوم فى الشرق أو فى الغرب على السواء . ويوم يرتفع صوت الاسلام سيخرس كل صوت آخر لأن صوته هو صوت الحق ، والخير ، والسلام والايجابية البنائية ، ومبادئه هى مبادىء البشرية الفاضلة المهذبة الواعية .

obeikandl.com